الجزء الرابع عشر

سـورة الحجر

هى مكية وآيها تسع وتسعون .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنها افتتحت بمثل ما افتتحت به سابقتها من وصف الكتاب المبين .

(٢) إنها شرحت أحوال الكفار يوم القيامة وتمنيهم أن لو كانوا مسلمين كما كانت السالفة كذلك .

(٣) إن فى كل منهما وصف السموات والأرض .

(٤) إن فى كل منهما قصصا مفصلا عن إبراهيم عليه السلام .

(٥) إن فى كل منهما تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم بذكر ما لاقاه الرسل السالفون من أممهم وكانت العاقبة للمتقين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١) رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ

يَعْلَمُونَ (٣) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (٤)
مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) .

شرح المفردات

ربما (بضم الراء وتخفيف الباء وتشديدها) كلمة تدل على أن ما بعدها قليل الحصول ، فإذا قيل ربما زارنا فلان دل على أن حصول الزيارة منه قليل ، يلهيم : أى يشغلهم من قولهم : لهيتُ عن الشىء أَلْهَى لُهَيا إذا أعرضت عنه ، ماتسبق : أى ما يتقدم زمان أجلها .

الإيضاح

(الر) تقدم منا القول فى بيان معانى هذه الحروف ومبانيها ، فذكرنا أنها حروف تنبيه بمنزلة ألا ، ويا ، وينطق بأسمائها ساكنة فيقال: (ألفْ . لامْ . را) .

(تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) أى تلك السورة من آيات ذلك الكتاب الكامل من بين سائر الكتب المنزلة من عند الله ، المبين للرشد من الغى ، والمظهر فى تضاعيفه للحكم والأحكام .

(ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) هذا إخبار من الله عن الكفار بأنهم سيندمون فى الآخرة على ما كانوا عليه من الكفر ، ويتمنون أن لو كانوا فى الدنيا مسلمين . وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا اجتمع أهل النار فى النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا بلى ، قالوا فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا فى النار ؟ قالوا كانت لنا ذنوب فأُخذنا بها ، فسمع الله ماقالوا ، فأمر بمن كان فى النار من أهل القبلة فأخرجوا ، فلما رأى ذلك من بقى من الكفار قالوا يا ليتنا كنا مسلمين

فنخرج كما خرجوا ، قال ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ـ الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ، ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين» .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » . قال الزجاج : إن الكافر كلما رأى حالا من أحوال العذاب ورأى حالا من أحوال المسلم ودّ أن لو كان مسلما .

وقصارى ذلك — قد يتمنى الذين كفروا لو كانوا مسلمين حينما يعاينون العذاب وقت الموت : « وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ» وفى الموقف حينما يرون هول العذاب وقد انصرف المسلمون إلى الجنة وسيقوا هم إلى النار والمسلمون المذنبون عذبوا بذنوبهم ثم خرجوا منها وبقى الكافرون فى جهنم .

وقد جاء التقليل على سنة العرب فى نحو قولهم : ربما تندم على ما فعلت ، ولا علك تندم على مافعلت، لايقصدون التقليل فى نحو ذلك ، وإنما يريدون أن الندم لو كان مشكوكا فيه أولو كان قليلا لحق عليك ألا تفعل هذا الفعل ، إذ العاقل يتحرز من التعرض للغم المظنون كما يتعرض للغم المتيقن ، ويبتعد عن القليل منه كما يبتعد عن الكثير .

(ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل) أى دعهم أيها الرسول فى غفلاتهم كلون كما تأكل الأنعام ويتمتعون بلذات الدنيا وشهواتها ، وتلهيهم الآمال عن الاجال ، فيقول الرجل منهم غدا سأنال ثروة عظيمة وأحظى بما أشتهى ويعلو ذكرى ويكثر ولدى ، وأبنى القصور ، وأكثر الدور ، وأقهر الأعداء ، وأفاخر الأنداد ، فى نحو ذلك مما يغرق فيه من بحار الأمانى والآمال وطلب المحال .

ثم علل الأمر بتركهم بقوله :

(فسوف يعلمون) سوء صنيعهم إذا هم عاينوا سوء جزائهم ووخامة عاقبتهم .

وفى هذا وعيد بعد تهديد وإلزام لهم بالحجة ومبالغة فى الإنذار ، وقد

جاء فى أمثالهم (أعذر من أنذر) وإيماء إلى أن التلذذ والتنعم وعدم الاستعداد للآخرة والتأهب لها ـ ليس من أخلاق المؤمنين .

أخرج أحمد والطبرانى والبيهقى عن عمرو بن شعيب مرفوعا قال : « صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ، ويهلك آخرها بالبخل والأمل» . وروى عن الحسن أنه قال : ما أطال عبد الأمل ، إلا أساء العمل ، وروى عن على أنه قال : إنما أخشى عليكم اثنتين ، طول الأمل واتباع الهوى ، فإن طول الأمل ينسى الآخرة ، واتباع الهوى يصد عن الحق .

وبعد أن هدد من كذب الرسول بقوله: ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل، ذكر سر تأخير عذابهم إلى يوم القيامة وعدم التعجيل به كما فعل بكثير من الأمم السالفة فقال :

(وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم) أى وما أهلكنا قرية من القرى بالخسف بها وبأهلها كما فعل ببعضها ، أو بإخلائها من أهلها بعد إهلاكهم كما فعل بأخرى ، إلا ولها أجل مقدر مكتوب فى اللوح المحفوظ لاينسى ولايغفل عنه ولايتقدم عن وقته ولا يتأخر .

وخلاصة ذلك — إننا لو شئنا لعجلنا لهم العذاب فصاروا كأمس الدابر ، ولكن لكل أجل كتاب ، وشأننا الإمهال لا الإهمال .

وبعد أن بين سبحانه أن الأمم المهلكة كان لكل منهم وقت معين لهلاكهم على حسب ما هو مكتوب فى اللوح ـ بين أن كل أمة منهم ومن غيرهم لها أجل لا يمكن التقدم عليه ولا التأخر عنه فقال :

(ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) أى لايجىء هلاك أمة قبل مجىء أجلها ، ولا يتأخر الهلاك متى حل الأجل .

وفى هذا تنبيه لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من الشرك والإلحاد

الذى يستحقون به الهلاك ، وزجر لهم بأن هـــذا الإمهال لاينبغى أن يغتروا به ، فالهلاك مدخر لهم لايتقدم ولا يتأخر .

وَقَالُوا يَأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِى شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥) .

شرح المفردات

الذكر : هو القرآن ، و (لوما) مثل (هلا) كلمة تفيد الحث والحضّ على فعل ما يقع بعدها ، منظرين : أى مؤخرين ، والشيع : واحدهم شيعة وهى الجماعة المتفقة على مبدأ واحد فى الدين والمعتقدات ، أو فى المذاهب والآراء . نسلكه : أى ندخله يقال سلكت الخيط فى الإبرة : أى أدخلته فيها ، يعرجون : يصعدون ، سكرت : سدت ومنعت من الإبصار ، مسحورون : أى سحرنا محمد بظهور ماأبداه من الآيات .

المعنى الجملى

بعد أن هدد سبحانه الكافرين وبالغ فى ذلك أيما مبالغة ـ شرع يذكر بعض مقالاتهم فى محمد صلى الله عليه وسلم المتضمنة للكفر بما جاء به ، ثم يذكر ماهم فيه من

جحود وعناد بلغا مدًى تنكر معه المشاهدات ، ويدّعى معه السحر والخداع حين رؤية المبصرات .

ثم ذكر سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم تسلية له أن ما صدر منهم من السفه ليس بدعا ، فهذا دأب كل محجوج ، فكثير من الأمم السالفة فعلت مثل هذا مع أنبيائها ، فلك أسوة بهم فى الصبر على سفاهتهم وجهلهم .

قال مقاتل : القائلون هذه المقالة هم عبد الله بن أمية والنضر بن الحرث ونوفل ابن خويلد والوليد بن المغيرة من صناديد قريش .

الإيضاح

(وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون) أى قالوا استهزاء وتهكما : أيها الرجل الذى زعم أنه نزل عليه القرآن : إن ما تقوله أملاه عليك الجنون ، وليس له معنى معقول ، وهو مخالف لآرائنا ، بعيد من معتقداتنا ، فكيف نقبل ما لا تقبله العقول ، ولا ترضاه الفحول من رجالاتنا الفخام ، وعشائرنا العظام ؟ .

(لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين) أى إن كان ما تدعيه حقا وقد أيدك الله وأرسلك ، فما منعك أن تسأله أن ينزل معك ملائكة من السماء يشهدون بصدق نبوتك .

وخلاصة ذلك : إن من يخالف آراءنا إما مجنون و إما له سلطان عظيم من ربه وحينئذ يقويه بالملائكة ليشهدوا بصدقه .

ونحو الآية قوله : « وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ » وقول فرعون فى شأن موسى : « فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ » وقوله : « وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ، لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا » .

وقد أجاب الله عن اقتراحهم فقال :

(ما ننزل الملائكة إلا بالحق) أى ما تنزل الملائكة إلا بالحكمة والفائدة ، وليس فى نزول الملائكة من السماء وأنتم تشاهدونهم ـ فائدة لكم ، لأنكم إذا رأيتموهم قلتم إنهم بشر لأنكم لا تطيقون رؤيتهم إلا وهم على الصورة البشرية إذ هم من عالم غير عالمكم ، وإذا قالوا نحن ملائكة كذبتموهم لأنهم على صورتكم فيحصل اللبس ولا تنتفعون بهم و إلى هذا أشار فى سورة الأنعام بقوله : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ » .

(وما كانوا إذا منظرين) أى إن فى نزول الملائكة ضررا لهم لا محالة ، لأنا نهلكهم ولا نؤخرهم ، إذ قد جرت عادتنا فى الأمم قبلهم أنهم إذا اقترحوا آية وأنزلناها عليهم ولم يؤمنوا بها ـ يكون العذاب فى إثرها ، فلو أنا أنزلناهم ولم يؤمنوا بهم لحق عليهم عذاب الاستئصال ولم يُنْظَرُوا ساعة من نهار .

والخلاصة — إنه ليس فى إنزال الملائكة إليهم فائدة لهم بل فيه اللبس عليهم ، إلى ما فيه من الضرر المحقق لهم وهو الهلاك ، وحينئذ يفوت ما قضينا به من تأخيرهم و إخراج من أردنا إيمانه من أصلابهم .

ثم أجاب سبحانه عن قولهم الأول وردّ إنكارهم تنزيل الذكر واستهزاءهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وسلاه على ذلك بقوله :

(إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون) أى إنما أنتم قوم ضالون مستهزئون بنبينا ، وليس استهزاؤكم بضائره ، لأنا نحن نزلنا القرآن ونحن حافظوه ، فقولوا إنه مجنون ، ونحن نقول : إنا نحفظ الكتاب الذى أنزلناه عليه من الزيادة والنقص والتغيير والتبديل والتحريف والمعارضة والإفساد والإبطال .

وسيأتى فى مستأنف الأزمان من يتولون حفظه والذب عنه و يدعون الناس إليه و يستخرجون لهم ما فيه من عبر وحكم وآداب وعلوم تناسب ما تستخرجه

العقول من المخترعات ، وتستنبطه الأفكار من نظريات وآراء فيستنير بها العارفون ، ويهتدى بهديها المفكرون ، فلا تبتئس أيها الرسول بما يقولون وما يفعلون .

ثم سلّى رسوله على ما أصابه من سفه قومه وادعائهم جنونه ـ بأن هـذا دأب الأمم المـكذبة لرسلها من قبل ، فلقد أصابهم مثل ما أصابك من قومك ، فاستهزءوا بهم كما استهزأ قومك بك ، فنصرنا رسلنا وكبتنا أعداءهم وسيكون أمركم وأمرهم كذلك ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين ، وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) أى إننا أرسلنا قبلك رسلا لأمم قد مضت ، وما أتى أمة رسول إلا كذبوه واستهزءوا به ، لما جرت به العادة من أن فعل الطاعات وترك اللذات ـ مستثقل على النفوس ـ إلى أنهم يدعونهم إلى ترك ما ألفوا من المعتقدات الخبيثة ، وترك عبادة الأوثان الباطلة ، وذلك مما يشق على النفوس ، إلى أن الرسول قد يكون فقيرا لا أعوان له ولا أنصار ، ولا مال ولا جاه ، فلا يتبعه الرؤساء وذوو البأس والقوة ، بل يعملون على مشاكسته ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، إلى أن الله يخذلهم ويلقى دواعى الـكفر فى قلوبهم على حسب السنن التى سنها لعباده كما يرشد إلى ذلك قوله:

(كذلك نسلـكه فى قلوب المجرمين ، لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين) أى كذلك نلقى القرآن فى قلوب المجرمين مستهزأ به غير مقبول لديهم ، لأنه ليس فى نفوسهم استعداد لتلقى الحق ، ولا تضىء نفوسهم بمصابيح هدايته الربانية ، كما كانت حال الأمم الماضية حين ألقيت عليهم الـكتب المنزلة من الملأ الأعلى .

وقد جرت سنة الله فى الأولين ممن بعث إليهم الرسل أن يخذلهم ويدخل الـكفر والاستهزاء فى قلوبهم ، ثم يهلـكهم وتكون العاقبة للمتقين والنصر حليف رسله والمؤمنين ، فلك أسوة بالرسل قبلك مع أممهم المـكذبة ، ولست بأوحدىّ فى ذلك .

والخلاصـة — هكذا نفعل باللاحقين كما فعلنا بالسابقين ، ويستهزئ بك

المجرمون ولا يؤمنون بكتابنا ، وسيحل بهم مثل ما حل بالأولين وتنصرك عليهم بعد حين كما قال : « وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » .

ثم بين سبحانه عظيم عنادهم ومكابرتهم للحق فقال :

(ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) أى ولو فتحنا على هؤلاء المعاندين بابا من السماء فظلوا فى ذلك الباب يصعدون فيرون من فيها من الملائكة وما فيها من العجائب ـ لقالوا لفرط عنادهم وغلوهم فى المكابرة : إنما سدت أبصارنا ، فما نراه تخيل لا حقيقة له ، وقد سحرنا محمد بما يظهر على يديه من الآيات .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ » .

وخلاصة هذا — هبنا فتحنا عليهم بابا من السماء وقلنا لهم اعرجوا فيه ، أفلا يقولون فى أنفسهم ويقول بعضهم لبعض : إنما سحرنا محمد كما يفعل علماء السيميا إذ يفعلون أفعالا تخيل للإنسان أنه طائر وليس بطائر ، وكما يفعل علماء التنويم المغناطيسى فى هذه الأيام ، فالمنوِّم يقول المنوَّم . أنت ملك . أنت امرأة . أنت كذا فيصدق كل ما قيل له . وهكذا فى النوع البشرى أقوام لهم قدرة على استهواء العقول فيخيلون للانسان ما لا حقيقة له ، وقد أصبح هـذا العلم فنًّا يدرس فى معاهد أوربا وأمريكا . فكيف يكون مثل هذا دليلا أو موجبا للتصديق ؟ كلا فإن أمثال ذلك لا يقوم بهداية نوع الإنسان .

و بعد فكيف يقترح هؤلاء عليك الآيات ، و يغرمون بما يخرق العادات ، من ملائكة يرونها ، وعجائب ينظرونها ، وهل تغنى تلك الآيات ، وهل النوع الإنسانى يكفيه ما يخالف العادات ؟ فما يشتبه على الناس بأفعال السحرة والمشعوذين يوقعهم

فى اللبس ، فكم من نبى أيدناه بمثل تلك الآيات ولم يؤمن به من قومه إلا قليل منهم وما الآيات إلا ما تفهمه العقول ، وتمحصه القرائح درسا وتحليلا ، وبحثا واستنباطا .

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠)

شرح المفردات

البروج : واحدها برج وهى النجوم العظام ومنها نجوم البروج الاثنى عشر المعروفة فى علم الفلك ، للناظرين : أى المفكرين المستدلين بذلك على قدرة مقدّرها ، وحكمة مدبرها ، وحفظناها : أى منعناها ، والرجيم : أى المرجوم المرمى بالرجام : أى الحجارة والمراد بالرجيم هنا المرمى بالنجوم ، واسترق من السرقة ، وهى أخذ الشىء خفية ، شبه به خطفتهم اليسيرة من الملأ الأعلى ، والسمع : المراد به ما يسمع ، والشهاب : الشعلة الساطعة من النار الموقدة ومن السحاب فى الجو ، وتبعت القوم تبعا وتباعة بالفتح : أى مشيت خلفهم أومروابك فمضيت معهم ، وأتبعت القوم إذا كانوا قد سبقوك فلحقتهم ، مددناها : أى بسطناها ، والرواسى : واحدها راسية وهى الجبال الثوابت ، موزون : أى مقدر بمقدار معين تقتضيه الحكمة والمصلحة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر شديد جحودهم وأنهم مهما أوتوا من الآيات لم يفدهم ذلك شيئا حتى بلغ من أمرهم أن ينكروا المشاهدات ويدّعوا الخداع حين رؤية المبصرات

ـ أعقب هذا ببيان أنهم قد كانوا فى غنى عن كل هذا ، فإن فى السماء وبروجها العالية ، وشموسها الساطعة ، وأقمارها النيرة ، وسياراتها الدائرة ، وثوابتها الباسقة ، عبرة لمن اعتبر ، وحجة لمن ادّكر ، فهلاّ نظروا إلى الكواكب وحسابها ونظامها ومداراتها ، وكيف حدثت بها الفصول والسنون ، وكيف كان ذلك بمقادير محدودة وأوقات معلومة ؟ لاتغيير فيها ولا تبديل ، فبأمثال هذا يكون اليقين ، وبالتدبر فيه تقوى دعائم الدين ، ويشتد أزر سيد المرسلين .

وهلا رأوا الأرض كيف مدّت ، وثبتت جبالها ، وأنبتت نباتها ، بمقادير معلومة موزونة فى عناصرها وأوراقها ، وأزهارها وثمارها ، وجعل فيها معايش للانسان والحيوان ، أفلا يعتبرون بكل هذا ؟ « وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ » .

الإيضاح

(ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين) أى ولقد خلقنا فى السماء نجوما كبارا ثوابت وسيارات ، وجعلناها وكواكبها بهجة لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من عجائبها الظاهرة ، وآياتها الباهرة التى يحار الفكر فى دقائق صنعتها ، وقدرة مبدعها .

ونحو الآية قوله تعالى : « إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ » .

(وحفظناها من كل شيطان رجيم) أى ومنعنا كل شيطان رجيم من القرب منها كما قال فى آية أخرى : « وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ » أى وحفظناها من كل شيطان خارج من الطاعة برميه بالشهب كما تحفظ المنازل من متجسس يخشى منه الفساد .

(إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) أى لكن من أراد اختطاف شىء من عالَم الغيب مما يتحدث به الملائكة فى الملأ الأعلى ـ تبعه كوكب مشتعل

نارا ظاهرا للمبصرين فأحرقه ، ولم يصل إلى معرفة شيء مما يدبر فى ملكوت السموات ، وبهذا المعنى قوله : « لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ »

وجاء بمعنى الآية قوله فى سورة الجن حكاية عنهم : « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً ، وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً » وقوله فى سورة الملك : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ » .

وبعدُ فالكتاب الكريم أخبر بأن الشياطين أرادوا أن يختطفوا شيئا من أخبار الغيب مما لدى الملائكة الكرام ، فسلطت عليهم الشهب المشتعلة والنجوم المتقدة فأحرقتهم ، ولانبحث عن معرفة كنه ذلك ، ولا ننعم فى النظر لندرك حقيقته ، لأنا لم نؤت من الوسائل والأسباب مايمكننا من معرفة ذلك معرفة صحيحة ، تجعلنا نؤمن به إيمانا مبنيا على البرهان بوسائله المعروفة ، وليس لنا إلا التصديق بما جاء فى الكتاب وأوحى به إلى النبي الكريم ، والبحث وراء ذلك لايقفنا على علم صحيح بل على حدس وتخمين لاحاجة المسلم به للاطمئنان فى دينه ، فالأحرى به أن يعرض عنه لئلا يحيد عن القصد ويضل عن سواء السبيل .

وبعد أن ذكر الدلائل السماوية على وحدانيته أتبعها بذكر الدلائل الأرضية فقال :

(والأرض مددناها) أى وقد بسطنا الأرض وجعلناها ممتدة الطول والعرض والعمق ، ليمكن الانتفاع بها على الوجه الأكمل ، وهذا فيما يظهر فى مرأى العين ، فلا يدل على نفى الكروية عن الأرض ، لأن الكرة العظيمة ترى كالسطح المستوى

(وألقينا فيها رواسى) أى وجعلنا فيها جبالا ثوابت خوف أن تضطرب بسكانها كما قال فى آية أخرى : « وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ » وقد سبق تفصيل ذلك فى سورة الرعد .

(وأنبتنا فيها من كل شىء موزون) أى إن كل نبات قد وزنت عناصره وقدرت تقديرا ، فترى العنصر الواحد يختلف فى نبات عنه فى آخر بوساطة امتصاص الغذاء من العروق الضاربة فى الأرض ومنها يرفع إلى الساق والأغصان والأوراق والأزاهير ، والذى حدد هذا الاختلاف ، تلك الفتحات الشعرية التى فى ظواهر الجذور ، وثقوب كل نبات لاتسع إلا المقدار اللازم لها من العناصر وتطرد ما سواه ، لأنه لايلائمها ، إذ هى قد كونت على هيئة خاصة بحيث لاتبتلع إلا تلك المقادير بعينها .

وهاك عنصر البوتاس تره يدخل فى حب الذرة الذى نأكله بمقدار ٣٢./. وفى القصب ٣٤٫٣./. وفى البرسيم بمقدار ٣٤٫٦./. وفى البطاطس بمقدار ٦١٫٥./. وبهذا التفاوت صلح القصب لأن يكون سكرا ، والبرسيم لأن يكون قوتا للبهائم ، والذرة والبطاطس لأن تكونا قوتا للانسان .

وحسبك دليلا على ذلك ما تجده فى سورة الرحمن من قوله : « وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ » كما نظم سبحانه الكواكب فى سيرها وفى أوضاعها وفى حركاتها وفى أضوائها ، ووزن عناصرها بمقادير يتناسب بعضها مع بعض .

فلك الحمد ربنا جعلت كل شىء فى الحياة موزونا بقدر معلوم لنتدبر نظم الحياة فنعرف قدرة منشىء العالم وأنه لم يخلق شيئا فيه جزافا ، بل قدره بقدر معلوم ، ليكون فيه دليل على قدرة المبدع والمدبر له حال وجوده .

(وجعلنا لكم فيه معايش) أى إن أنواع معايشكم من غذاء وماء ولباس ودواء قد سخرناها لكم فى الأرض ، فلا السمك فى البحر غذيتموه ، ولا الطير فى الجوّ ربيتموه ، ولاغيرهما من أشجار الجبال والغابات وحيوان البر والبحر خلقتموه .

(ومن لستم له برازقين) أى وجعلنا لكم فيها من لستم رازقيه من العيال والمماليك والخدم والدواب ، وفى هذا إيماء إلى أن الله يرزقهم وإياهم لا أنهم يرزقون منهم ، وفى ذلك عظيم المنة وجزيل الفضل والعطاء وواسع الرحمة لعباده .

وخلاصة هذا — إنه سبحانه يسر لكم أسباب المكاسب ، وصنوف المعايش وسخر لكم الدواب التى تركبونها ، والأنعام التى تأكلونها ، والعبيد التى تستخدمونها ، فكل أولئك رزقهم على خالقهم لاعليكم ، فلكم منها المنفعة ورزقها على الله تعالى .

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥) .

شرح المفردات

الخزائن : واحدها خزانة وهى المكان الذى يحفظ فيه نفائس الأموال ، واللواقح : واحدها لاقح أى ذات لقاح وحمل ، وأسقيناكموه : أى جعلناه لكم سقيا لمزارعكم ومواشيكم ، تقول العرب إذا سقت الرجل ماء أولبنا سقيته و إذا أعدوا له ماء لشرب أرضه أو ماشيته قالوا أسقيته أوأسقيت أرضه أوماشيته ، والمستقدمين : من ماتوا ، والمستأخرين : الأحياء الذين لم يموتوا بعد .

المعنى الجملى

بين سبحانه فيما سلف أنه أنزل النبات وجعل لنا فيه معايش فى هذه الحياة وهنا أتبعه بذكر ما هو كالسبب فى ذلك ، وهو أنه تعالى مالك كل شىء ، وأن كل شىء سهل عليه ، يسير لديه ، فإن عنده خزائن الأشياء من النبات والمعادن النفيسة والمخلوقات البديعة مما لاحصر له .

الإيضاح

(وإن من شىء إلا عندنا خزائنه) أى ما من شىء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده والإنعام به متى أردنا دون أن يكون تأخير ولا إبطاء ، فخزائن ملكنا مليئة بما تحبون من النفائس ، غير محجوبة عن الباحث الساعى إلى كسبها من وجوهها على حسب السنن التى وضعناها ، والنظم التى قدرناها ، ولا يمنعها مانع ، ولا يستطيع دفعها دافع ، فهى تحت قبضة الطالب لها إذا أحسن المسعى ، وأحكم الطلب كما قال : « فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ » .

(وما ننزله إلا بقدر معلوم) أى وما نعطى ذلك إلا بقسط محدود نعلم أن فيه الكفاية لدى الحاجة ، وفيه الرحمة بالعباد كما قال : « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » .

وقد جرت سنة القرآن بأن يسمى ما يصل إلى العباد بفضل الله وجوده إنزالا كما قال : « وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ » وقال : « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » .

ثم فصل بعض ما فى خزائنه من النعم فقال :

(وأرسلنا الرياح لواقح) أى إن من فضله على عباده وإحسانه إليهم أن أرسل إليهم الرياح لواقح ، ويكون ذلك على ضروب :

(١) أن يرسلها حاملات للسحاب فتلقح بها الأشجار بما تنزل عليها من الأمطار فتغيرها من حال إلى حال فتعطيها حياة جديدة؛ إذ تزدهر أزهارها ، وتثمر أغصانها ، بعد أن كانت قد ذبلت وصوّحت وأصبحت فى مرأى العين كأنها ميتة لاحياة فيها كما قال تعالى : « وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ » .

(٢) أن يرسلها ناقلة لقاح الأزهار الذكور إلى الأزهار الإناث لتخرج الثمر والفواكه للناس .

(٣) أن يرسلها لتزيل عن الأشجار ماعلق بها من الغبار لينفذ الغذاء إلى مسامها فيكون ذلك رياضة للشجر والزرع كرياضة الحيوان .

(فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه) أى فأنزلنا من السحاب مطرا فأسقيناكم ذلك المطر لشرب زرعكم ومواشيكم ، وفى ذلك استقامة أمور معايشكم وتدبير شئون حياتكم إلى حين كما قال : « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ » .

(وما أنتم له بخازنين) أى ولستم بخازنى الماء الذى أنزلناه فتمنعوه من أن أسقيه من أشاء ، لأن ذلك بيدى وهوخاضع لسلطانى ، إن شئت حفظته على سطح الأرض وإن شئت غار فى باطنها وتخلل طبقاتها ، فلا أبقى منه شيئا ينفع الناس والحيوان ويسقى الزرع الذى عليه عماد حياتكم .

والخلاصة — نحن القادرون على إيجاده وخزنه فى السحاب وإنزاله ، وما أنتم على ذلك بقادرين .

وبعد أن ذكر نظم المعيشة فى هـذه الحياة ذكر إحياء الإنسان وإماتته فقال :

(وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون) أى وإنا لنحيى من كان ميتا إذا أردنا ، ونميت من كان حيا إذا شئنا ، ونحن نرث الأرض ومن عليها فنميتهم جميعا ولا يبقى حى سوانا ، ثم نبعثهم كلهم ليوم الحساب فيلاقى كل امرئ جزاء ما عمل إن خيرا وإن شرا .

ثم أقام الدليل على إمكان ذلك وأثبت قدرته عليه فقال :

(ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) أى ولقد علمنا من مضى منكم وأحصيناهم وما كانوا يعملون ، ومن هو حى ومن سيأتى بعدكم ، فلا تخفى علينا أحوالكم ولا أعمالكم ، فليس بالعسير علينا جمعكم يوم التناد للحساب والجزاء يوم ينفخ فى الصور كما قال :

(وإن ربك هو يحشرهم) فيجمع الأولين والآخرين عنده يوم القيامة ، من أطاعه منهم ومن عصاه ويجازى كلا بما عمل على حسب ما وضع من السنن ، وقدّر من ارتباط المسببات بأسبابها ، وجعل لكل عمل جزاء له .

ثم أكد هذا وزاده إيضاحا فقال :

(إنه حكيم عليم) أى إنه تعالى باهر الحكمة واسع العلم ، فهو يفعل ما يشاء على مقتضى الحكمة والعدل ، وما يؤيده من سعة العلم والفضل .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ

اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤) .

شرح المفردات

صلصال : أى طين يابس يصلصل و يصوت إذا نقر وهو غير مطبوخ ، فإذا طبخ فهو فخّار ، وحمإ : أى طين تغير واسودّ من مجاورة الماء له واحدته حمأة ، ومسنون : أى مصوّر مفرغ على هيئة الإنسان كالجواهر المذابة التى تصب فى القوالب ، والجانّ أى هذا الجنس كما أن الإنسان يراد به ذلك ، فإذا أريد بالإنسان آدم أريد بالجان أبو الجن ، ونار السموم : هى النار الشديدة الحرارة التى تقتل وتنفذ فى المسام ، بشرا : أى إنسانا وسمى بذلك لظهور بشرته أى ظاهر جلده ، سويته : أى أتممت خلقه وهيأته لنفخ الروح فيه ، والنفخ : إجراء الريح من الفم أو غيره فى تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها ، ويراد به هنا إضافة مابه الحياة على المادة القابلة لها ورجيم : أى مرجوم مطرود من كل خير وكرامة ، اللعنة : الإبعاد على سبيل السخط يوم الدين : أى يوم الجزاء ، فأنظرنى : أى أمهلنى وأخرنى ولا تمتنى ، ويوم الوقت المعلوم : هو وقت النفخة الأولى حين تموت الخلائق كما روى عن ابن عباس ، والإغواء : الإضلال ، هذا صراط علىّ : أى هذا صراط حق لابد أن أراعيه ، مستقيم : أى لا انحراف فيه فلا يعدل عنه إلى غيره ، والسلطان : التسلط والتصرف بالإغواء ، سبعة أبواب : أى سبع طبقات ، جزء مقسوم : أى فريق معين مفروز من غيره :

الإيضاح

(ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون) أى ولقد خلقنا أول فرد من أفراد الإنسان من طين يابس يصلصل و يصوت إذا نقر ، أسود متغير مفرغ فى قالب ليجف و يبس كالجواهر المذابة التى تصب فى القوالب .

ونحو الآية قوله : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ . وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ » وقد جاء خلق آدم على أطوار مختلفة فكان أولا ترابا كما قال : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ » ثم كان طينا كما قال : « إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ » ثم كان صلصالا من حمأ مسنون كما جاء فى هذه الآية وإنما خلقه على ذلك الوضع ليكون خلقه أعجب وأتم فى الدلالة على القدرة .

(والجانّ خلقناه من قبل من نار السموم) أى وخلقنا هذا الجنس من قبل خلق آدم من نار الريح الحارة التى لها لفح وتقتل من أصابته .

وعن ابن مسعود هذه السموم جزء من سبعين جزءا من السموم التى خلق منها الجان ثم قرأ : (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) وقد ورد فى الصحيح «خلقتُ الملائكة من نور ، وخلقت الجان من مارج من نار ، وخُلق آدم مما وصف لكم ».

وفى الآية إيماء إلى شرف آدم عليه السلام وطيب عنصره وطهارة محتده ، وعلينا أن نؤمن بأن الجن خلقت من النار، ولكنا لا نعرف كنه ذلك ولا حقيقته ، فذلك ما لا سبيل إلى معرفته إلا من طريق الوحى .

و بعد أن ذكر سبحانه فى معرض الدليل على قدرته ـ خلق الإنسان الأول ، ذكر بعده مقاله للملائكة والجن بشأنه فقال :

(و إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين. قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون) أى واذكر أيها الرسول لقومك حين نوّه ربكم بذكر أبيكم آدم فى ملائكته قبل خلقه ، وتشريفه بأمر الملائكة بالسجود له ، وتخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة حسدا وعنادا واستكبارا بالباطل فقال : لم أكن لأسجد الخ .

وحكى عنه فى آية أخرى أنه قال : « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » .

وتقدم هذا القصص فى سورة الأعراف وقلنا هناك : إن الأمر بالسجود أمر تكليفى ، وأنه قد وقع حوار بين إبليس وربه ، ويرى كثير من العلماء أن القصة بيان لغرائز البشر والملائكة والشيطان ، إذ جعل الملائكة وهم المدبرون لأمور الأرض بإذن ربهم مسخرون لآدم وذريته ، وجعل هذا النوع مستعدا للانتفاع بالأرض كلها لعلمه بسنن الله فيها وعمله بهذه السنن ، فانتفع بمائها وهوائها ومعادنها ونباتها وحيوانها وكهربائها ونورها ، وبذا أظهر حكمة الله فى خلقها ، واصطفى بعض أفراده وخصهم بوحيه ورسالته وجعلهم مبشرين ومنذرين ، وجعل الشيطان عاصيا متمردا على الإنسان وعدوا له ، وجعل النفوس البشرية وسطا بين النفوس الملكية المفطورة على طاعة الله وإقامة سننه فى صلاح الخلق ، وبين أرواح الجن الذين يغلب على شرارهم ـ الشياطين ـ التمرد والعصيان .

وقد ذكر سبحانه حجاج إبليس وذكر سبب امتناعه عن السجود لآدم بأنه خير منه فإنه خلق من النار وآدم من الطين والنار خير من الطين وأشرف منه ، والشريف لا يعظم من دونه ولو أمره ربه بذلك .

وفى هذا ضروب من الجهالة وأنواع من الفسق والعصيان فإنه :

(١) اعترض على خالقه بما تضمنه جوابه .

(٢) احتج عليه بما يؤيد به اعتراضه

(٣) إنه جعل امتثال الأمر موقوفا على استحسانه وموافقته لهواه ، وهذا رفض لطاعة الخالق وترفع عن مرتبة العبودية .

(٤) استدلاله على خيريته بالمادة التى منها التكوين ، وخيرية المواد بعضها على بعض أمر اعتبارى تختلف فيه الآراء ، إلى أن الملائكة خلقوا من النور وهو قد خلق من النار ، والنور خير من النار ، وهم قد سجدوا امتثالا لأمر ربهم .

(٥) إنه قد جهل ماخص به آدم من استعداده العلمى والعملى أكثر من سواه، ومن تشريفه بأمر الملائكة بالسجود له ، فكان بذلك أفضل منهم ، وهم أفضل من إبليس بعنصر الخلقة والطاعة لربهم .

(قال فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين . قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم) أمره سبحانه أمرا كونيا لا يخالف بالخروج من المنزلة التى كان فيها من الملإ الأعلى ، ثم جعله مرجوما مطرودا وأتبعه لعنة لاتزال متواصلة لاحقة به متواترة عليه إلى يوم القيامة وهو يبعث الخلق من قبورهم فيحشرون لموقف الحساب وهو وقت النفخة الأولى ، فلما تحقق النَّظِرة .

(قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين) أى قال إبليس : رب بسبب إغوائك إياى وإضلالى لأزينن لذرية آدم وأحببن إليهم المعاصى وأرغبنهم فيها ولأغوينهم كما أغويتنى وقدرت علىّ ذلك إلا من أخلص منهم لطاعتك ، ووفقته لهدايتك ، فإن ذلك ممن لاسلطان لى عليه ولا طاقة لى به .

ثم هدده سبحانه وأوعده بقوله :

(قال هذا صراط علىّ مستقيم) أي قال هذا طريق مرجعه إلىّ فأجازى كل امرئ بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، كما يقول القائل لمن يتوعده ويتهدده : طريقك علىّ . وأنا على طريقك : أى لامهرب لك منى ، ونظير الآية قوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » .

وهذا رد لما جاء فى كلام إبليس حيث قال: « لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ » الآية .

(إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) أى إن عبادى

لاسلطان لك على أحد منهم سواء أكانوا مخلصين أم غير مخلصين ، لكن من اتبعك باختياره صار من أتباعك .

وقال سفيان بن عيينة : ليس لك عليهم قوة ولا قدرة على أن تلقيهم فى ذنب يضيق عنه عفوى .

والخلاصة — إن إبليس أوهم أن له على بعض عباد الله سلطانا بقوله لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين ، فأكذبه الله بقوله إن عبادى الخ .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عن إبليس : « وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي » وقوله : « إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ » .

(وإن جهنم لموعدهم أجمعين) أى وإن جهنم موعد جميع من اتبع إبليس وهى مقرهم و بئس المهاد جزاء ما اجترحوا من السيئات وكفاء ما دنسوا به أنفسهم من قبيح المعاصى .

(لها سبعة أبواب) أى لها سبع طبقات ينزلونها على حسب مراتبهم فى الغواية والضلالة .

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها : جهنم والسعير ولظى والحُطَمة وسقر والجحيم والهاوية وهى أسفلها .

(لكل باب منهم جزء مقسوم) أى كتب لكل باب منها فريق معين من أتباع إبليس يدخلونه ولامحيد لهم عنه على حسب أعمالهم واختلاف مراتبهم فى النار .

قال ابن جريج : النار سبع دركات وهى جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية ؛ فأعلاها للعصاة الموحدين ، والثانية لليهود ، والثالثة للنصارى ، والرابعة للصابئين ، والخامسة للمجوس ، والسادسة للمشركين ، والسابعة للمنافقين ، فجهنم أعلى الطبقات ثم ما بعدها تحتها وهكذا .

وروى عن ابن عباس أن جهنم لمن ادعى الربوبية ، ولظى لعبدة النار ، والحطمة لعبدة الأصنام ، وسقر لليهود ، والسعير للنصارى ، والجحيم للصابئين ، والهاوية للموحدين العصاة ، وهؤلاء يرجى لهم ولا يرجى لغيرهم أبدا . وليس فى هـذا أثر مرفوع يمكن أن يركن إليه ويجعل حجة فيه .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) .

شرح المفردات

المتقون : هم الذين اتقوا الكفر والفواحش ولهم ذنوب من الصغائر تكفرها الصلوات وغيرها ، جنات : أى بساتين ، وعيون : أى أنهار جارية ، بسلام : أى بسلامة من الآفات وأمن من المخافات ، والغل : الحقد الكامن فى القلب ، والسرر : واحدها سرير وهو مجلس رفيع مهيأ للسرور ، والنصب : الإعياء والتعب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال أهل الغواية وبين أنهم فى نار جهنم يخلدون فيها أبدا وأنهم يكونون فى طبقات بعضها أسفل من بعض بمقدار ما اجترحوا من السيئات ، واقترفوا من المعاصى — أردفه بذكر حال أهل الجنـة وما يتمتعون به من نعيم مقيم ، ووفاق بعضهم مع بعض ، لاضغن بينهم ولا حقد ، وهم يتحدثون على سرر متقابلين ولا يجدون مس التعب والنصب ، ولا يخرجون منها أبدا .

الإيضاح

(إن المتقين فى جنات وعيون) أى إن الذين اتقوا الله وخافوا عقابه فأطاعوا أوامره واجتنبوا نواهيه ـ يتمتعون فى جنات تجرى من تحتها الأنهار كما قال : « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ » الآية .

(ادخلوها بسلام آمنين) أى ويقال لهم : ادخلوها وأنتم سالمون من الآفات والمنغصات ، آمنون من سلب تلك النعم التى أنعم بها ربكم عليكم وأكرمكم بها ولا تخافون إخراجا ولا فناء ولا زوالا .

(ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين) أى وأخرجنا مافى صدور هؤلاء المتقين الذين ذكرت صفتهم ـ من حقد وضغينة بعضهم لبعض .

روى القاسم عن أبى أمامة قال : يدخل أهل الجنة الجنةَ على مافى صدورهم فى الدنيا من الشحناء والضغائن ، حتى إذا توافَوْا وتقابلوا نزع الله مافى صدورهم فى الدنيا من غل ثم قرأ : (ونزعنا مافى صدورهم من غل) .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن على كرم الله وجهه أنه قال لابن طلحة : إنى لأرجو أن أكون أنا وأبوك من الذين قال الله تعالى (ونزعنا مافى صدورهم) الآية. فقال رجل من همدان : إن الله سبحانه أعدل من ذلك ، فصاح علىّ صيحة تداعى لها القصر ، وقال : فمن إذاً إن لم نكن نحن أولئك .

والخلاصة — إن الله طهر قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات فى الجنة ونزع منها كل غل وألقى فيها التوادّ والتحاب والتصافى ، والمراد بكونهم على سرر متقابلين أنهم فى رفعة وكرامة ، وقد روى أن الأسرّة تدور بهم حيثما داروا فهم فى جميع أحوالهم متقابلين لاينظر بعضهم إلى أقفية بعض ، وهم يجتمعون ويتنادمون ويتزاورون ويتواصلون .

(لايمسهم فيها نصب) أى لايلحقهم فى تلك الجنات مشقة ولا أذى ، لأنهم ليسوا فى حاجة إلى ما يوجب ذلك من السعى فى تحصيل ما لابدّ لهم منه ، لحصول كل ما يشتهون من غير مزاولة عمل .

روى الشيخان أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن الله أمرنى أن أبشر خديجة ببيت فى الجنة من قصب لاصخب فيه ولا نصب .

(وماهم منها بمخرجين) أى وهم خالدون فيها أبدا لايبرحونها ، يشعرون بلذة النعيم ودوامه ، فهم فى خلود بلا زوال ، وكمال بلا نقصان ، وفوز بلا حرمان .

والخلاصة — إن المسرة بالنعيم لاتتم إلا إذا توافرت أمور :

(١) أن يكون مقرونا بالتعظيم ، وإلى ذلك الإشارة بقوله : (ادخلوها بسلام آمنين) .

(٢) أن يكون خالصا من شوائب الضرر ، روحانية كانت كالحقد والحسد والغضب ، وإلى ذلك الإشارة بقوله (ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا) أوجسمانية كالإعياء والتعب ، وإلى ذلك الإشارة بقوله (لايمسهم فيها نصب) .

(٣) أن يكون دائما غير قابل للزوال ، وإلى ذلك الإشارة بقوله (وماهم منها بمخرجين) .

نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠) وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ

إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا
إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ
قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠) فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ
إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ
(٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ
وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥)
وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦) وَجَاءَ
أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨)
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ؟ (٧٠) قَالَ
هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ
(٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا
عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا
لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ
الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (٧٩) وَلَقَدْ
كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا
مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ
الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤).

شرح المفردات

تقول : أنبأت القوم إنباء ونبأتهم تنبئة: إذا أخبرتهم، والأفصح فى كلمة الضيف : ألا تثنى ولا تجمع حين تستعمل للمثنى والجمع والمؤنث بل تستعمل بلفظ واحد لكل ذلك ، والوجل : اضطراب النفس لخوفها من توقع مكروه يصيبها ، عليم : أى ذى علم كثير ، بالحق : أى بالأمر المحقق الذى لاشك فى وقوعه ، وقنط من كذا : أى يئس من حصوله ، والضالون : الكفار الذين لايعرفون كمال قدرته تعالى وسعة رحمته ، وخطبكم : أى أمركم وشأنكم الذى لأجله أرسلتم، قدرنا : أى قضينا وكتبنا ، يقال قضى الله عليه كذا وقدره عليه : أى جعله على مقدار الكفاية فى الخير والشر ، وقدر الله الأقوات : جعلها على مقدار الحاجة ، والغابرين : أى الباقين مع الكفار ليهلكوا معهم ، وأصله من الغبرة وهى بقية اللبن فى الضرع ، منكرون : أى لا أعرفكم ولا أعرف من أىّ الأقوام أنتم ؟ ولأى غرض دخلتم علىّ ؟ ويمترون : أى يشكون ويكذبون به ، فأسر بأهلك : أى اذهب بهم ليلا ، والقطع من الليل : الطائفة منه كما قال :

افتحى الباب وانظرى فى النجوم كم علينا من قطع ليل بهيم

اتبع أدبارهم : أى كن على إثرهم لتسرع بهم وتطلع على أحوالهم ، وقضينا : أى أوحينا ، ودابرهم : آخرهم ، ومقطوع : أى مهلك مستأصل ، مصبحين : أى فى وقت الصباح، والمدينة : هى سَدُوم (بالذال المعجمة) مدينة قوم لوط، والاستبشار: إظهار السرور ، والفضيحة : إظهار ما يوجب العار ، والخزى : الذل والهوان ، والعَمْر والعُمْر (بالفتح والضم) : الحياة ، وهو حين القسم بالفتح لاغير ، سكرتهم ، غوايتهم، يعمهون : أى يتحيرون ، والصيحة : الصاعقة ، وكل شىء أهلك به قوم فهو صيحة وصاعقة أخرجه ابن المنذر عن ابن جرير ، ومشرقين : أى داخلين فى الشروق وهو بزوغ الشمس ، والسجيل : الطين المتحجر وهو معرّب لاعربى فى المشهور ،

المتوسمين : أى المتفرسين الذين يتثبتون فى نظرهم ليعرفوا سمة الشىء وعلامته ، يقال توسمت فى فلان خيرا : أى ظهرت لى منه علاماته ، قال عبد الله بن رواحة يمدح النبى صلى الله عليه وسلم :

إنى توسمت فيك الخير أعرفه والله يعلم أنى ثابت البصر

لبسبيل مقيم : أى لبطريق واضح معلم ليس بخفى ولا زائل ، وأصحاب الأيكة : قوم شعيب عليه السلام ، والأيكة : الغيضة ، وهى الشجر الملتف بعضه على بعض وقد كانوا فى مكان كثير الأشجار كثيف الغبار ، لبإمام مبين : أى لبطريق واضح وأصل الإمام مايؤتم به سمى به الطريق لأنه يُؤتم ويتبع ، وأصحاب الحجر : هم ثمود ، والحجر : واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه ، ويسمى كل مكان أحيط بالحجارة حجرا ومنه حجر الكعبة ، وآياتنا : هى الناقة وفيها آيات كثيرة كعظم خلقها وكثرة لبنها وكثرة شربها ، والإمام : ما يؤتم به ومن جملة ذلك الطريق التى تسلك .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أوعد به أهل الغواية فى يوم القيامة من دخول جهنم ، وذكر أنها دركات لأولئك الغاوين على حسب اختلاف أحوالهم بمقدار ما دنسوا به أنفسهم من اتخاذ الأنداد والشركاء وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ثم أعقبه بذكر ما أعد لعباده المؤمنين من الجنات والعيون والنعيم المقيم والراحة التى لانصب بعدها ولا تعب ، والجلوس بعضهم مع بعض يتنادمون ويتجاذبون أطراف الأحاديث وهم فى سرور وحبور على سرر متقابلين ـ أردف ذلك بفذلكة وخلاصة لما سبق ، فأمر نبيه أن يبلغ عباده أنه غفار لذنوب من تابوا وأنابوا إلى ربهم ، وأن عذابه مؤلم لمن أصروا على المعاصى ولم يتوبوا منها ، ثم فصل ذلك الوعد والوعيد فذكر البشارة لإبراهيم بغلام عليم ، وذكر إهلاك قوم لوط بما اجترحوا من كبرى الموبقات ، وفظيع الجنايات ، بفعلهم فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، حتى

صاروا كأمس الدابر وأصبحوا أثرا بعد عين ، و إهلاك أصحاب الأيكة قوم شعيب جزاء ظلمهم بشركهم بالله ونقصهم للمكاييل والموازين ، فانتقم الله منهم بعذاب يوم الظلة ، و إهلاك أصحاب الحجر وهم ثمود الذين كذبوا صالحا وكانوا ذوى حول وطول وغنى ومال وقوة و بطش ، فأعرضوا عن آيات ربهم حينما جاءتهم على يدى رسوله ، فأخذتهم الصيحة وقت الصباح ولم يغن عنهم مالهم من دون الله شيئا حين جاء أمره .

أخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق عطاء بن أبى رباح عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال : «طلع علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الباب الذى يدخل منه بنو شيبة فقال : (ألا تراكم تضحكون) ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا القَهْقَرَى فقال : إنى لما خرجت من الباب جاء جبريل عليه السلام فقال يا محمد إن الله يقول لك : لِمَ تُقْنِطْ عبادى (نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم. وأن عذابى هو العذاب الأليم)» .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه قال فى قوله (نبئ عبادى) الآية : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام ، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله لبخع نفسه » .

وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله سبحانه خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ، فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة ، فلو يعلم الكافر كل الذى عنده من رحمة لم ييأس من الرحمة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله تعالى من العذاب لم يأمن من النار » .

الإيضاح

(نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم) أى أخبر أيها الرسول عبادى أنى أنا الذى يستر ذنوبهم إذا تابوا منها وأنابوا بترك فضيحتهم بها وعقوبتهم عليها ،

الرحيم بهم أن أعذبهم بعد توبتهم منها . وفى قوله (نبئ عبادى) إيماء إلى أنه ينبئ كل من كان معترفا بعبوديته ، فيشمل ذلك المؤمن المطيع والعاصى ، وغير خاف ما فى ذلك من تغليب جانب الرحمة من قبله تعالى على جانب العقاب .

(وأن عذابى هو العذاب الأليم) أى وأخبرهم أيضا بأن عذابى لمن أصر على معاصيّ وأقام عليها ولم يتب منها ـ هو العذاب المؤلم الموجع الذى لا يشبهه عذاب آخر ، وفى هـــذا تهديد شديد وتحذير لخلقه أن يقدموا على معاصيه ، ومن الأمر لهم بالإنابة والتوبة .

والخلاصـة — إن الله جمع لعباده بين التبشير والتحذير ليكونوا على قدمى الرجاء والخوف وحال الأنس والهيبة .

ثم ذكر سبحانه قصصا تقدم مثله بأسلوب آخر فى سورة هود وبدأ بقصص إبراهيم عليه السلام فقال :

(ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما) أى أخبر عبادى عن ضيوف إبراهيم خليل الرحمن وهم الملائكة الذين أرسلهم الله إلى قوم لوط ليستأصلوا شأفتهم ويبيدوهم على ظلمهم ، فقالوا حين دخلوا عليه سلاما : أى سلمت من الآفات والآلام سلاما .

(قال إنا منكم وجلون) أى قال إبراهيم للضيف : إنا خائفون منكم ، لأنهم دخلوا عليه بلا إذن وفى وقت لا يجىء فى مثله طارق ، أو لأنه حين قرّب إليهم العجل الحنيذ لم يأكلوا منه ، والضيف إذا لم يأكل مما يقدم له من الطعام يظن أنه لم يأت لخير ، ويؤيد هذا قوله فى سورة هود : « فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً » .

(قالوا لا توجل) أى قال الضيف لإبراهيم : لا تخف ولا يجم حول ساحتك الحزن والهلع .

ثم علل النهى عن الوجل بقوله :

(إنا نبشرك بغلام عليم) أى إنا جئناك بالبشرى بغلام ذى علم وفطنة وفهم لدين الله ، وسيكون له شأن لأنه سيصير نبيا .

ونحو الآية قوله : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا » .

ثم قال إبراهيم متعجبا من مجىء ولد من شيخ وعجوز :

(أبشرتمونى على أن مسنى الكبر ؟) أى أبشرتمونى بذلك مع مس الكبر وتأثيره فىّ ، وتلك حال تنافى هذه البشرى .

(فبم تبشرون) أى فبأى أعجوبة تبشرون ؟ إذ لاسبيل فى العادة إلى مثل ذلك ، وكأنه عليه السلام أراد أن يعرف : أيُعْطَى هذا الولد مع بقائه على حاله من الشيخوخة التامة ، أو يُرْجع شابا ثم يعطى الولد ، لما جرت به العادة من أن الولد لا يكون إلا حين الشباب .

فأجابوه مؤكدين ما بشروه به تحقيقا لما قالوا وليكون بشارة بعد بشارة .

(قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين) أى قال ضيف إبراهيم له : بشرناك بما يكون حقا ، وإنا لنعلم أن الله قد وهب لك غلاما ، فلا تكن من الذين يقنطون من فضل الله فييأسوا من خرق العادة ، بل أبشر بما بشرناك به واقبل البشرى .

والخلاصة — إنه عليه السلام استعظم نعمة الله عليه فاستفهم هذا الاستفهام التعجبى المبنى على السنن التى أجراها الله بين عباده ، لا أنه استبعد ذلك على قدرة الله ، فهو أجلّ من ذلك قدرا ، ويؤيد هذا جوابه عليه السلام .

(قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) أى قال إبراهيم للضيف : لا ييأس من رحمة الله إلا من أخطأ سبيل الصواب ، وغفل عن رجاء الله الذى لا يخيب من رجاه ، فضلّ بذلك عن الرأى القيم ، وهذا كقول يعقوب : « لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » .

وخلاصة مقاله — إنه نفى القنوط عن نفسه على أتم وجه ، فكأنه قال : ليس بى قنوط من رحمته تعالى ، لكن حالى تنافى فيض تلك النعم الجليلة التى غمرنى بها ، وتوالى المكرمات التى شملت آل هذا البيت .

و بعد أن تحقق عليه السلام مصداق هذه البشرى ورأى أنهم أتوا مختفين على غير ما عهد عليه ملك الوحى ، سألهم عن أمرهم ليزول عنه الوجل .

(قال فما خطبكم أيها المرسلون) أى قال لهم : ما الأمر العظيم الذى جئتم لأجله سوى البشرى ، وكأنه عليه السلام فهم من مجرى حديثهم فى أثناء الحوار أن ليست هذه البشرى هى المقصودة ، بل لهم شأن آخر لأجله أرسلوا لأنهم كانوا عددا والبشارة لاتحتاج إلى مثل هذا العدد ، ومن ثم اكتفى بالواحد فى بشارة زكريا ومريم عليهما السلام ؛ وأيضا لو كانت البشارة هى المقصودة لابتدءوا بها ، فأجابوه .

(قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) أى قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين من قوم لوط ، واكتفوا بهذا القدر من الجواب ، لأن إبراهيم يعلم أن الملائكة إذا أرسلوا إلى المجرمين كان ذلك لهلاكهم و إبادتهم . ومما يرشد أن يفهم هذا الفهم قولهم .

(إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين) أى إلا أتباع لوط فى الدين فلن نهلكهم بل ننجيهم من العذاب الذى أمرنا أن نعذب به قوم لوط .

(إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين) أى لانهلك آل لوط وأتباعه إلا امرأته فقد قضى الله أنها من الباقين مع الكفرة ثم هى مهلكة بعد ذلك معهم ، وقد أضاف الملائكة هذا التقدير إلى أنفسهم مع أنه لله تعالى ، بيانا لمزيد قربهم من ربهم واختصاصهم به تعالى كما يقول خاصة الملك : دبرنا كذا وأمرنا بكذا ، والمدبر الآمر هو الملك .

و بعد أن بشروا إبراهيم عليه السلام بالولد وأخبروه بأنهم مرسلون بعذاب قوم مجرمين — ذهبوا إلى لوط وآله كما قال سبحانه .

(فلما جاء آل لوط المرسلون . قال إنكم قوم منكرون) أى فلما خرج المرسلون من عند إبراهيم وجاءوا قرية لوط أنكرهم لوط ولم يعرفهم وقال لهم : من أى الأقوام أنتم ، ولأى غرض جئتم ؟ و إنى أخاف أن تمسونى بمكروه .

ونحو الآية قوله : « وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا »

و إنما قال هذه المقالة ، لأنه لم يشاهد من المرسلين حين مقاساة الشدائد ومعاناة المكايد من قومه الذين يريدون بهم ما يريدون — إعانة ولا مساعدة فيما يأتى وما يذر حين تجشم الأهوال فى تخليصهم فأنكر خذلانهم له وتركهم نصره حين المضايقة التى حلت به بسببهم حتى اضطر إلى أن يقول : « لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ » كما جاء فى سورة هود .

(بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) أى قال له الرسل : ما جئناك بما خطر ببالك من المكروه ، بل بما فيه سرورك وهو عذابهم الذى كنت تحذرهم منه وهم يكذبونك فيه قبل مجيئه ، فأنى لك بعد هذا أن يعتريك مساءة وضيق ذرع ؟ .

وخلاصة ما أرادوا أن يقولوا — ماخذلناك وما خلينا بينك و بينهم ، بل جئناك بما يدمرهم و يهلكهم من العذاب الذى كنت تتوعدهم به وهم يكذبونك .

واختاروا هذا الأسلوب ولم يقولوا جئناك بعذابهم لإفادة ذلك شيئين : تحقق عذابهم وتحقق صدقه عليه السلام بعد أن كابد منهم كثيرا من الإنكار والتكذيب .

(وأتيناك بالحق و إنا لصادقون) أى وجئناك بالأمر المحقق المتيقن الذى لامجال فيه للامتراء والشك وهو العذاب الذى كتب وقدر لقوم لوط ، و إنا لصادقون فيما أخبرناك به .

ثم شرعوا يرتبون له مبادئ النجاة قبل حلول العذاب بقومه فقالوا له :

(فأسر بأهلك بقطع من الليل) أى فسر بأهلك ببقية من الليل ، وأهله على ماروى هم بنتاه .

(واتبع أدبارهم) أى وكن من وراء أهلك الذين تسرى بهم ، وعلى إثرهم لتذود عنهم وتسرع بهم وتراقب أحوالهم حتى لايتخلف منهم أحد لغرض فيصيبه العذاب .

(ولا يلتفت منكم أحد) فيرى ماينزل بقومه فيرقّ قلبه لهم ، وليوطن نفسه على الهجرة و يطيب نفسا بالانتقال إلى المسكن الجديد ، ثم أكد هذا النهى بقوله :

(وامضوا حيث تؤمرون) أى وامضوا حيث يأمركم الله غير ملتفتين إلى ماوراءكم كالذى يتحسر على مفارقة وطنه ، فلا يزال يلوى له أخادعه كما قال أبو تمام :

تلفتُّ نحو الحىّ حتى وجدتُنى وجِعت من الإصغاء ليتاً وأَخْدَعا

والخلاصة — إنهم أمروا بمواصلة السير ونهوا عن التوانى والتوقف ، ليكون ذلك أقطع للعوائق ، وأحق بالإسراع للوصول إلى المقصد الحقيق وهو بلاد الشام .

(وقضينا إليه ذلك الأمر) أى وأوحينا إليه أن ذلك الأمر مقضى مبتوت فيه ؛ ثم فصل ذلك الأمر فقال :

(أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) أى إن آخر قومك وأولهم مجذوذ مستأصل صباح ليلتهم ولا يبقى منهم أحد ، ونحو الآية قوله : « فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الذِينَ ظَلَمُوا » .

ثم شرع يذكر ماصدر من القوم حين علموا بقدوم الأضياف وما ترتب عليه مما أشير إليه أولا على سبيل الإجمال فقال :

(وجاء أهل المدينة يستبشرون) أى وجاء أهل سذوم حين سمعوا أن ضيفا قد ضافوا لوطا ـ مستبشرين بنزولهم مدينتهم طمعا فى ركوب الفاحشة منهم .

وفى هـذا إيماء إلى فظاعة فعلهم ، إذ هم خالفوا ماجرى به العرف وركّب فى الأذواق السليمة من إكرام الغريب وحسن معاملته ، وقصدوا بهم الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين .

روى أن امرأة لوط أخبرتهم بأنه نزل بلوط ثلاثة من المُرْد مارأينا قط أصبح منهم وجها ولا أحسن شكلا ، فذهبوا إلى دار لوط طالبا لهم مظهرين اغتباطا وسرورا بهم .

ثم أخبر عن مقالة لوط لقومه حين رآهم يقصدون بهم السوء .

(قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون) أى قال لوط لقومه : إن هؤلاء الذين جئتموهم تريدون منهم الفاحشة ضيفى ، وحق على الرجل إكرام ضيفه فلا تفضحونى فيهم وأكرمونى بترك التعرض لهم بمكروه .

ثم زاد النهى توكيدا بقوله :

(واتقوا الله ولا تخزون) أى وخافوا الله فىّ وفى أنفسكم أن يحل بكم عقابه ، ولا تهينونى فيهم بالتعرض لهم بالسوء ، وهذه الجملة آكد فى الغرض من سابقتها ، إذ التعرض للجار بعد حمايته والذب عنه أجلب للعار ، ومن ثم عبر عن لجاجهم ومجاهرتهم بمخالفته بالخزى وأمرهم بتقوى الله فى ذلك .

ثم أبانوا له أنه السبب فى الفضيحة وفى هذا الخزى .

(قالوا أو لم ننهك عن العالمين ؟) أى قال قومه له : أو لم ننهك أن تضيف أحدا من العالمين أو تؤويه فى قريتنا ، إذ هم كانوا يتعرضون لكل غريب بالسوء ، وكان لوط ينهاهم عن ذلك على قدر حوله وقوته ويحول بينهم و بين من يعرضون له ، وكانوا قد نهوه عن التعرض لهم فى مثل ذلك .

وخلاصة مقالهم — إن ماذكرت من الخزى والفضيحة أنت مصدره والجالب له ، فلولا تعرضك لنا ما أصابك ما أصابك .

ولما رآهم متمادين فى غيهم ، لايرعوون عن غوايتهم ولا يقلعون عما هم عليه .

(قال إن هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين) أى قال لوط لقومه : تزوجوا النساء ولا تفعلوا ماقد حرم الله عليكم من إتيان الرجال إن كنتم فاعلين ما آمركم به ، منتهين إلى أمرى ، وقد سمى نساء قومه بناته ، لأن رسول الأمة كالأب لهم كما قال تعالى : « النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » .

ثم أبان له الرسل أنه لا أمل فى ارعوائهم عن غيهم فقالوا :

(لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) أى قالت الملائكة للوط : وحياتك أيها الرسول إن قومك لفى ضلالتهم التى جعلتهم حيارى ولا يعرفون ما أحاط بهم من البلاء ، ولا ماذا يصيبهم من العذاب المنتظر ، لما أصابهم من عمى البصيرة فهم لا يميزون الخطأ من الصواب ، ولا الحسن من القبيح .

ثم ذكر عاقبة أمرهم فقال :

(فأخذتهم الصيحة مشرقين) أى فنزل بهم العذاب المنتظر وأخذتهم الصاعقة وقت الشروق ، وكان ابتداؤها من الصبح وانتهاؤها حين الشروق ، ومن ثم قال أولا مصبحين وقال هنا مشرقين ، وأخذ الصيحة قهرها لهم وتمكنها منهم ومن ثم يقال للأسير أخيذ .

ثم بين كيفية أخذها لهم ولقريتهم فقال :

(فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) أى فجعلنا عالى المدينة وهو ما على وجه الأرض سافلها فانقلبت عليهم وأمطرنا عليهم أثناء ذلك حجارة من طين متحجر ، وقد تقدم ذكر ذلك فى سورة هود .

وخلاصة ذلك — إنه تعالى أرسل عليهم ثلاثة ألوان من العذاب .

(١) الصيحة المنكرة الهائلة والصوت المفزع المخيف .

(٢) إنه قلب عليهم القرية فجعل عاليها سافلها .

(٣) إنه أمطر عليهم حجارة من سجيل .

ثم ذكر أن فى هذا القصص عبرة لمن اعتبر فقال :

(إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) أى إن فيما فعلناه بقوم لوط من الهلاك والعذاب لدلالات للمفكرين الذين يعتبرون بما يحدث فى الكون من عظات وعبر ، ويستدلون بذلك على مايكون لأهل الكفر والمعاصى من عقاب بئيس بما كانوا يكسبون .

أخرج البخارى فى التاريخ والترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو نعيم

وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى، ثم قرأ: إن فى ذلك لآيات للمتوسمين » .

والفراسة على نوعين :

(١) مايوقعه الله فى قلوب الصلحاء فيعلمون بذلك أحوال الناس بالحدس والظن

(٢) مايحصل بدلائل التجارب والأخلاق .

وقد صنف الناس فى القديم والحديث كتبا فى ذلك و بعض العلماء يجعلها دليلا يحكم به كما فعل إياس بن معاوية (كان قاضيا ذكيا فى عهد التابعين) .

ثم لفت أنظار أهل مكة إلى الاعتبار بها لو أرادوا فقال :

(وإنها لبسبيل مقيم) أى وإن هـذه المدينة ـ مدينة سدوم ـ التى أصابها ما أصابها من العذاب ـ لبطريق واضح لاتخفى على السالكين ، فآثارها باقية إلى اليوم لم تندثر ولم تخفَ ، فالذين يمرون عليها من الحجاز إلى الشام يشاهدون آثارها كما قال فى الآية الأخرى « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ » .

ثم أيأس من اعتبارهم بها ، إذ هى لايعتبر بها إلا المؤمنون فقال :

(إن فى ذلك لآية للمؤمنين) أى إن فيما فعلناه بقوم لوط من الهلاك والدمار و إنجائنا لوطا وأهله ـ لدلالة جلية للمؤمنين المصدقين بالله ورسله ، إذ هم يعرفون أن ذلك إنما كان انتقاما من الله لأنبيائه من أولئك الجهال الذين عصوا أمر ربهم وكفروا برسله ولم يرعووا عن غيهم وضلالهم بعد إنذارهم ونصحهم .

أما الذين لايؤمنون بالله فيجعلون ذلك حوادث كونية لأسباب فلكية وشؤون أرضية ، جعلت الأرض تنهار لحدوث فراغ فى بعض أجزائها ، كما يشاهد اليوم فى البلاد ذات البراكين من اختفاء بلاد فى باطن الأرض وابتلاع الأرض لها كما حدث فى مدينة مسينا بإيطاليا سنة ١٩٠٩ وظهور جزائر فى وسط المحيطات لم تكن من قبل .

و بعد أن ذكر قصص قوم لوط أتبعه بقصص قوم شعيب عليه السلام فقال :

(و إن كان أصحاب الأيكة لظالمين) أى و إن أصحاب الأيكة كانوا بجبلتهم ظالمين كفارا ليس لديهم استعداد للايمان بالله ورسله ، أرسل الله إليهم و إلى أهل مدين شعيبا فكذبوه .

أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيبا » .

(فانتقمنا منهم) جزاء مادنّسوا به أنفسهم من الكفر والمعاصى ، فسلط على أصحاب الأيكة الحر سبعة أيام لايُظِل منه ظِلٌّ ، ولا يمنعهم منه شىء ، ثم أرسل عليهم سحابة فلوا تحتها يلتمسون الروح منها ، فبعث عليهم منها نارا فاضطرمت عليهم فأكلتهم ، فذلك عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ، وأما أهل مدين فقد أخذتهم الصيحة .

ثم ذكر أنه قد كان من حق قريش أن يعتبروا بهما فقال :

(و إنهما لبإمام مبين) أى و إن مدينة أصحاب الأيكة ومدينة قوم لوط ـ لبطريق واضح يأتمون به فى سفرهم ـ ويهتدون به فى مسيرهم .

ثم ذكر سبحانه قصة صالح بقوله :

(ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) أى ولقد كذبت ثمود نبيهم صالحا عليه السلام ، ومن كذب رسولا من رسل الله فكأنما كذب الجميع ، لاتفاق كلمتهم على التوحيد والأصول العامة التى لاتختلف باختلاف الأمم والأزمان .

(وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين) أى وأريناهم حججنا الدالة على نبوة صالح عليه السلام من الناقة وغيرها فأعرضوا عنها ولم يعتبروا بها .

(وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين) من هدمها ونقب اللصوص لها أو تخريب الأعداء لها لقوة أسْرها وبديع إحكامها ، وقد تقدم تفصيل ذلك فى سورة الأعراف .

ثم ذكر ميقات هلاكهم فقال :

(فأخذتهم الصيحة مصبحين) أى فأخذتهم صيحة الهلاك حين كانوا فى ضحوة اليوم الرابع من اليوم الذى أوعدوا فيه بالعذاب كما جاء فى قوله : « وَقِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ » .

(فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى فما دفع عنهم ما نزل بهم ما كانوا يكسبون من نحت البيوت وجمع الأموال وكثرة العدد وجمع العُدد ، بل خروا جاثمين هلكى حين حل بهم قضاء الله .

روى البخارى وغيره عن ابن عمر « أن النبى صلى الله عليه وسلم مرّ بالحجر وهو ذاهب إلى تبوك فقنّع رأسه وأسرع براحلته وقال لأصحابه : لاتدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ماأصابهم » .

وأخرج ابن مردويه عنه قال : « نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة تبوك بالحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناسُ من مياه الآبار التى كانت تشرب منها ثمود وعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم ، فأمرهم بإهراق القدور وعلف العجين للإبل ، ثم ارتحل عن البئر التى كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال : إنى أخشى عليكم أن يصيبكم مثل الذى أصابهم فلا تدخلوا عليهم » .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦) .

شرح المفردات

بالحق : أى بالحكمة والمصلحة ، والساعة يوم القيامة ، والصفح : ترك التثريب واللوم ، والصفح الجميل : ما خلا من العتب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى القصص السالف إهلاك الأمم المكذبة لرسلها وعذابها بشتى أنواع العذاب كفاء مادنسوا به أنفسهم من فظائع الشرك وأنواع المعاصى التى تقوّض دعائم الإخلاص لبارئ النسم وتهد أركان نظم المجتمع ؛ بعبادة الأصنام والأوثان ، وتطفيف للكيل والميزان ، وإتيان الفاحشة التى تشمئز منها النفوس وتنفر منها الأذواق السليمة ـ أرشد هنا إلى أنهم بعملهم هذا قد تركوا ما قضت به الحكمة والمصلحة من خلق السموات والأرض لعبادة خالقها وطاعته واستقرار نظم المجتمع على وجه صالح صحيح ، ودأبوا على عبادة غيره من الأصنام والأوثان ، فكان من العدل تطهير الأرض منهم دفعا لشرورهم وإصلاحا لمن يأتى بعدهم .

الايضاح

(وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) أى وما خلقنا الخلائق مما فى الأرض والسماء وما بينهما إلا بالعدل والإنصاف لا بالظلم والجور ، فإهلاكنا للأمم التى كذبت رسلها وقصصنا عليك قصصها ، وتعجيل النقمة لهم لم يكن ظلما بل كان عدلا وحكمة .

وفى هذا إيماء إلى أن ما يصيب غيرهم من المكذبين لك من العذاب فى الآخرة فيه عدل ومصلحة للبشر .

ثم هدد العصاة وتوعدهم فقال :

(وإن الساعة لآتية) أى إن يوم القيامة لآت لا ريب فيه ، وحينئذ ينتقم الله ممن يستحق العذاب ويحسن إلى من يستحق الإحسان ، فارض بما يكون لهم من شديد العقاب .

(فاصفح الصفح الجميل) أى فأعرض عنهم إعراضا جميلا واحتمل أذاهم ، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم .

وخلاصة ذلك — خالقهم بخلق حسن ، وتأنّ عليهم ، واحلم عنهم وأنذرهم وادعهم إلى ربك قبل أن تقاتلهم .

(إن ربك هو الخلاق العليم) أى إن ربك هو الذى خلقهم وخلق كل شىء وهو العليم بهم وبما يأتون وما يذرون ، وهو المدبر لأمورهم والمقدر لها على وجه الحكمة والمصلحة .

وقصارى ذلك — إنه خالقك وخالقهم ، وعليم بأحوالك وأحوالهم ، ولا يخفى عليه شىء مما جرى بينك وبينهم ، فخليق بك أن تكل الأمور إليه ، ليحكم بينك وبينهم ، وقد علم أن الصفح الجميل أولا أولى بهم إلى أن يحكم السيف بينك وبينهم .

وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)

شرح المفردات

المثانى : واحدها مثنى من التثنية وهو التكرير والإعادة ، ومد عينيه إلى مال فلان : اشتهاه وتمناه ، والأزواج : واحدها زوج وهو الصنف ، وخفض الجناح :

يراد به التواضع واللين، وأصل ذلك أن الطائر إذا أراد أن يضم فرخه إليه بسط جناحيه له ، والجناحان من الإنسان : جانباه ، والنذير : المخوّف بعقاب الله من لم يؤمن به ، وعضين : أى أجزاء واحدها عضة من عضيت الشاة جعلتها أعضاء وأقساما ، فاصدع بما تؤمر : أى اجهر به من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارا ، يضيق صدرك : أى ينقبض من الحسرة والحزن ، والساجدين : أى المصلين ، واليقين : الموت وسمى به لأنه أمر متيقن لا يشك فيه .

المعنى الجملى

بعد أن أمر رسوله أن يصبر على أذى قومه وأن يصفح عنهم الصفح الجميل ـ أردف ذلك بذكر ما أولاه من النعم ، وما أغدق عليه من الإحسان ، ليسهل عليه الصفح ، ويكون فيه سلوة له على احتمال الأذى ، فذكر أنه آتاه السبع المثانى ـ الفاتحة ـ والقرآن العظيم الجامع لما فيه هدى البشر وصلاحهم فى دنياهم وآخرتهم.

و بعد أن ذكر له تظاهر نعمه عليه نهاه عن الرغبة فى الدنيا ومد العينين إليها بتمنى ما فيها من متاع ، ونهاه عن الحسرة على الكفار إن لم يؤمنوا بالقرآن و بما جاء به وأمره بالتواضع لفقراء المسلمين ، و بإنذار قومه المشركين بتبليغهم ما أمر به الدين وما نهى عنه ، بالبيان الكافى ، والإعذار الشافى ، و بيان عاقبة أمرهم بتحذيرهم أن يحل بهم ما حل بالمقتسمين ـ اليهود والنصارى ـ الذين جعلوا القرآن أقساما فآمنوا بما وافق التوراة وكفروا بما عدا ذلك ، و يبين لهم أنه سيسألهم ربهم عن جريرة أعمالهم .

ثم أمره أن يعلن ما أمر به من الشرائع ، ولا يلتفت إلى لوم المشركين وتثريبهم له ولا يبال بما سيكون منهم ، فالله تعالى كفاه أمر المستهزئين به وأزال كيدهم ، و إذا ساوره ضيق الصدر من سماع سفههم واستهزائهم كما هو دأب البشر ، فليسبح ربه

وليحمده وليكثر الطاعة له ، فالعبد إذا حزبه أمر نزع إلى طاعة ربه وقد كفل سبحانه أن يكشف عنه ما أهمه .

الإيضاح

(ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم) أى ولقد أكرمناك بسبع آيات هى الفاتحة التى تثنى وتكرر فى كل صلاة ، وهذا قول عمر وعلى وابن مسعود لما روى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أم القرآن السبع المثانى التى أعطيتها » أو لأنها قسمت قسمين : ثناء ودعاء ، وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بينى و بين عبدى نصفين » وأكرمناك أيضا بالقرآن العظيم .

وتخصيص الفاتحة بالذكر من بين القرآن الكريم لمزيد فضلها على نحو ما جاء فى قوله تعالى : « وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ » .

و بعد أن عرّف سبحانه رسوله عظيم نعمه عليه فيما يتعلق بالدين ـ نهاه عن الرغبة فى الدنيا فقال :

(لاتمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم) أى لاتتمنين أيها الرسول ماجعلنا من زينة الدنيا متاعا للأغنياء من اليهود والنصارى والمشركين ، فإن من وراء ذلك عقابا غليظا .

والخطاب و إن كان موجها إلى النبى صلى الله عليه وسلم ـ تعليم لأمته كما تقدم مثله كثيرا ، يؤيد هذا ما روى أنه أتت من بُصرى وأذرعات سبع قوافل لقُرَيظة والنَّضير فى يوم واحد فيها أنواع من البزّ (الأقمشة) والطيب والجواهر ، فقال المسلمون : لو كانت لنا لتقوّينا بها ولأنفقناها فى سبيل الله .

وخلاصة ذلك — لقد أوتيت النعمة العظمى التى إذا قيست بها كل النعم كانت حقيرة ، فقد أوتيت سبع آيات هى خير من السبع القوافل .

(ولا تحزن عليهم) إذ لم يؤمنوا ليقوى بمكانهم الإسلام وينتعش بهم المؤمنون ؛ وقد كان صلى الله عليه وسلم يود أن يؤمن به كل من بعث إليه ، ويتمنى لمزيد شفقته عدم إصرار الكفار على كفرهم .

وبعد أن نهاه عن الالتفات إلى الأغنياء من الكفار أمره بالتواضع لفقراء المسلمين فقال :

(واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) أى وألن جانبك وارفق بمن آمن واتبعك ، ولا تجفُ بهم ولا تغلظ عليهم .

ونحو الآية قوله تعالى : « أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ » وقوله فى صفة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ »

ثم بين وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال :

(وقل إنى أنا النذير المبين) أى أنا النذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تماديهم فى غيهم كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلها فانتقم الله منهم بإنزال العذاب بهم .

وفى الصحيحين عن أبى موسى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال يا قوم : إنى رأيت الجيش بعينىّ وإنى أنا النذير العريان ، فالنّجاء النّجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مَهَلهم فنجوا ، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق » .

(كما أنزلنا على المقتسمين . الذين جعلوا القرآن عضين) أى ولقد آتيناك سبعا من المثانى كما آتينا من قبلك من اليهود والنصارى التوراة والإنجيل ، وهم الذين اقتسموا القرآن وجزءوه أجزاء فآمنوا ببعضه الذى وافق كتابيهما ، وكفروا ببعضه

وهو ما خالفهما ـ أخرج ذلك البخارى وسعيد بن منصور والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس من طرق عدة .

و بعد أن بين وظيفة الرسول ذكر أن الحساب على الأعمال موكول إلى الله لا إليه فقال :

(فوربك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون) أى فلنسألن الكفار جميعا سؤال تأنيب وتو بيخ لهم على ما كانوا يقولون و يفعلون فيما بعثناك به إليهم وفيما دعوناهم إليه من الإقرار بى و بتوحيدى والبراءة من الأنداد والأوثان ، روى أبو جعفر عن الربيع عن أبى العالية فى تفسير الآية قال : يسأل الله العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة عما كانوا يعبدون ، وعماذا أجابوا المرسلين .

وعن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا معاذ إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه ، وعن فُتات الطينة بإصبعه ، فلا ألفينّك يوم القيامة وأحدٌ غيرك أسعد بما آتاك الله منك » .

و بعد أن ذكر أن وظيفته التبليغ شدد عليه فى الجهر به جهد المستطاع فقال :

(فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) أى اجهر بإبلاغ ما أمرت به من الشرائع وواجه به المشركين ، ولا تلتفت إلى ما يقولون ولا تبال بهم ولا تخفهم ، فإن الله كافيكهم وحافظك منهم .

ولما كان هذا الصدع شديدا عليه لكثرة ما يلاقيه من أذى المشركين ذكر أنه حارسه وكالئه منهم فلا يخشى بأسهم فقال :

(إنا كفيناك المستهزئين) أى إنا كفيناك شر المستهزئين الذين كانوا يسخرون منك ومن القرآن ، وهم طائفة من المشركين لهم قوة وشوكة كانوا كثيرى السفاهة والأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين يرونه أو يمر بهم ، أفناهم الله وأبادهم وأزال كيدهم ؛ وقد اختلف فى عدتهم فقوم يقولون هم خمسة : الوليد بن المغيرة والعاص ابن وائل وعدى بن قيس والأسود بن عبد يغوث والأسود بن عبد المطلب ، وقد ماتوا

جميعا بأهون الأسباب ، فتعلق بثوب الوليد سهم فتكبر أن يبعده عنه فأصاب عرقا في عقبه فمات ، ومات العاص بشوكة في إِخْمَص قدمه ، وأصاب عدى بن قيس مرض في أنفه فمات ، وأصيب الأسود بن عبد يغوث بداء وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات (هذه أعراض حمى التيفوس فيغلب أن يكون قد أصيب بها) وعنى الأسود بن عبد المطلب .

وقوم يقولون هم سبعة من أشراف قريش ومشركيها .

ثم وصف هؤلاء المستهزئين بالشرك فقال :

(الذين يجعلون مع الله إلها آخر) أى هم الذين اتخذوا إلها آخر مع الله يعبدونه .

وفى وصفهم بهـذا الوصف تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وتهوين للخطب عليه ، إذ أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء بمقام النبوة ، بل تعدوه إلى الإشراك بربهم المدبر لأمورهم والمحسن إليهم .

ثم توعدهم على ما كانوا يصنعون فقال :

(فسوف يعلمون) عاقبة أمرهم حين يحل بهم عذاب ربهم ، يوم تجزى كل نفس بما عملت ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولـكن عذاب الله شديد .

وبعد أن سلاه بكفاية شرهم ودفع مكرهم ذكر تسلية أخرى له فقال :

(ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) من كلمات الشرك والاستهزاء كما هو دأب الطبيعة البشرية حين ينوب الإنسان ما يؤلمه ويحزنه ، أن يرى فى نفسه انقباضا وضيقا فى الصدر وأسى وحسرة على ما حل به .

ثم أمره سبحانه بأن يفزع لـكشف ما نابه من ضيق الصدر إلى تسبيح الله وحمده فقال :

(فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) أى إذا نزل بك الضيق ووجدت نفسك فافزع إلى ربك ، ونزهه عما يقولون ، حامدا له

على توفيقك للحق ، وهدايتك إلى سبيل الرشاد ، وصلّ آناء الليل وأطراف النهار ، فإن فى مناجاة ربك ما يقربك إلى حضرة القدس ، ويسمو بنفسك إلى الملإ الأعلى كما ورد فى الحديث « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، ودم على ما أنت عليه طالبا المزيد من فضله ، حتى يأتيك الموت ، فهناك الجزاء بلا عمل ، وهنا العمل ولا جزاء .

وقصارى ذلك — إنه تعالى أرشده إلى كشف ما يجده فى نفسه من الغم بفعل الطاعات ، والإكثار من العبادات وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر واشتد عليه خطب ، فزع إلى الصلاة ، روى أحمد عن ابن عمار أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «قال الله تعالى يا ابن آدم لاتعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره » .

وقد حكى الله عن أهل النار أنهم يقولون : « لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ . وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ . وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ » .

وفى هـذا دلالة على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على المرء ما دام ثابت العقل ، روى البخارى عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صل قائما ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنب » .

اللهم وفقنا لطاعتك ، واهدنا لعبادتك ، واجعلنا من المتقين الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

خلاصة ما اشتملت عليه السورة الكريمة

من الحكم والأحكام

(١) وصف القرآن الكريم .

(٢) الإعراض عن المشركين حتى يحل بهم ريب المنون .

(٣) استهزاء المشركين وإنكارهم لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم لما يرونه من الآيات .

(٤) إقامة الأدلة على وجود الله بما يرونه من الآيات فى خلق السموات والأرض وفى خلق الإنسان .

(٥) عصيان إبليس أمر ربه فى السجود لآدم وذكر الحوار بينه وبين ربه ، وطلبه الإنظار إلى يوم الدين .

(٦) بيان حالى أهل الجنة وأهل النار يوم القيامة .

(٧) قصص بعض الأنبياء وذكر ما أهلك الله به كل أمة من الأمم المكذبة لرسلها .

(٨) بيان أن الحكمة فى خلق السموات والأرض هى عبادة الله وحده وإقامة العدل والنظام فى المجتمع .

(٩) ذكر ما أنعم الله به على نبيه من السبع المثانى والقرآن العظيم .

(١٠) نهى نبيه والمؤمنين عن تمنى زخرف الدنيا وزينتها .

(١١) أمره صلى الله عليه وسلم بخفض الجناح والرفق بمن اتبعه من المؤمنين .

(١٢) التذكير بنعمة الله عليه بإهلاك أعدائه المستهزئين الذين جعلوا القرآن عضين .

(١٣) الأمر بالدعوة للدين جهرا والصدع بها وعدم المبالاة بالمشركين .

(١٤) أمره صلى الله عليه وسلم بالتسبيح والعبادة إذا ضاق صدره باستهزاء المشركين والطعن فيه وفى كتابه الكريم .